تأمّلات في سورة الفيل

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)

اشتهر أن مولد الرسول ص كان في عام الفيل بعد (55 يوما من الواقعة) (وهناك من قال بعد 30سنة أو 40سنة من الواقعة). والأصح أنها في نفس العام (بحار 15/142 الكافي الحجة 5/560. سيرة ابن هشام1/161)

وحادثة الفيل لقت صداها في تاريخ العرب والمسلمين وقد دونها القرآن الكريم كحدث مر على قريش (وهي من آيات ا الجلية التي لا سترة عليها، وقد أرخوا بها وذكرها الجاهليون في أشعارهم)الميزان20/334

يقول ابن إسحاق فبعد هذه الواقعة (أعظمت العرب قريشا وقالوا هم أهل ا قاتل ا عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم) سيرة ابن هشام1/73 وقد سار أبرهة أو إبراهام قاصدا خراب البيت الحرام ورفعوا شعار لا كعبة بعد اليوم.

وهنا وقفة تأمّل: ما الدافع الذي دفع إبرهة لتخريب البيت الحرام؟ ومعروف أن إبرهة رجل مسيحي وعنده علم أن هذا البناء بيت بناه إبراهيم الخليل؟ ثم لماذا يتخلى عبد المطلب وهو سادن الكعبة وحاميها عن حماية الكعبة ويكتفي بطلب الإبل التي أخذه الجيش الحبشي؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات لا بد من عرض قليل للتاريخ الحبشي في اليمن حتى وصول الحكم لأبرهة: معروف أن أول من كسا الكعبة المشرفة هو تبع الحميري بن سبأ قحطان واسمه (تبان أسعد والتبان لقب بمعنى الذكاء) فجاء إلى المدينة لاستنقاذ الأوس والخزرج الذي جاؤوا بعد انهيار سد مأرب فعقدوا شروطا مع اليهود بالمينة لكن اليهود كعادتهم نقضوا، فجاء تبع ليستأصلهم ويخرب مزارعهم، لكن خرج منها حبران يهوديان وأرضوه وقالوا أن هذه البلد مهاجر آخر نبي وأقنعوه فدخل في اليهودية وأدخل اليهودية في اليمن، كيف أقنعوه عندما اصطحبهما معه (ابن هشام(46-1/45) فرأى نفرا من هذيل فأرشدوه إلى الكعبة وقالوا له (أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال داثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد

والياقوت والذهب والفضة ؟ قال : بلى ، قالوا : بيت بمكة يعبده أهله ، ويصلون عنده. (يعلل) وإنما أراد الهذليون

هلاكه بذلك (هنا أخبره الحبرين بأن هذه فيه هلاكك).لكن في الحقيقة حتى هؤلاء لم يريدوا للكعبة شأن كما سيأتي.

وبعد وفاة تبع ملك ابنه حسان وهذا يريد توسعة النشاط التجاري (سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم ، حتى إذا كانوا ببعض أرض العراق أو البحرين، انقلب عليه الجيش بقيادة أخيه عمرو) حتى وصل الأمر إلى آخر ملك وهو ذو نواس وهو صاحب الأخدود في سورة البروج لتعذيب النصارى، لكن هرب واحد منهم والتجأ إلى قيصر الروم لأنه مسيحي فأرسله إلى ملك الحبشة لقربها لليمن الذي جهر جيشا بقيادة أرياط وفي جنوده أبرهة الذي استطاع أن يهزم ذي نواس ويكون نائب الملك الحبشي إلا أن أبرهة سرعان ما انقلب وعين نفسه حاكما ولمدة 40سنة (الأخبار الطوال ص62) فغضب الملك النجاشي. فأبرهة الآن بين غضبين (غضب الملك الحبشي وقيصر الروم) فبنى كنيسة ضخمة وسماها القليس بصنعاء والسبب في بنائها:

- أولا إرضاءً للملكين.

- كانت الكنائس في ذلك الوقت تتنافس في البنيان في بيت لحم في روما (ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك) يقول الطبري بالفسيفساء والرخام والأصباغ.

- للعامل الروحاني بدافع أنه اخترع أسطورة تقول "المسيح سيعود إلى صنعاء وسيصلي في مكان ما فيها لتبرير بناء الكنيسة" ويكبيديا القليس

- والعامل الاقتصادي وهو الأهم يقول أبرهة(ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب). سيرة ابن هشام 1/61 يقول أحد المستشرقين (والاستيلاء على مفتاح التجارة الهندية) العرب في التاريخ 30

- ولأن مفاتيح التجارة بين المشرق والمغرب أعني الفرس والروم، وكان لكل منهما حامية المناذرة في العراق والغساسنة في الشام، وهذه الطرق البرية لم تكن مأمونة للحروب التي كانت بينهم، وليس هناك وسيلة إلا بدخول جزيرة العرب، فكون الفرس والروم علاقات بالقبائل العربية لأجل

مصالحهم فيحمون تجارتهم منهم إلى اليمن فالحبشة ويعدون ممرا آمنا لتجارتهم، عن طريق البحر

الأحمر يقول تبن الأثير(وكان ملك العرب من قبل كسرى المناذرة يسيطرون على عُمان والبحرين واليمامة إلى الطائف وسائر الحجاز) ابن الأثير1/149ويخبرنا ذلك يوم عرف بيوم الصفقة كما يقول ابن الكلبي(بعث كسرى أنوشروان إلى عامله باليمن بعيرًا، وكان باذان على الجيش الذي بعثهُ كسرى على اليمن، وكانت العير تحمل نبعًا (هو شجر يصنع منه القسي والسهام) فكانت تبذرق (الخفارة) من المدائن حتى تدفع إلى النعمان ويبذرقها النعمان بخفراء من ربيعة ومضر حتى يدفعها إلى هوذة بن علي الحنفي فيبذرقها حتى يخرجها من أرض بني حنفية ثم تدفع إلى سعد (من تميم) وتجعل لهم جعالة فتسير فيها فيدفعونها إلى عمال كرى باليمن) الذي صار أن هوذة ققال لا حاجة لتميم حتى تعطوهم الجعالة آخذه أنا، فغير المسار وجاء إلى هجر، فغضبت تميم وهجموا عليه وقتلوا عامل كسرى، ونجا هواذة مع من معه من الفرس بفداء وجاؤوا إلى كسرى وأخبروه فغضب، وأرسل لهم المكعبر واليه على البحرين فجاء إلى المشقر فقتل الكثير من بني تميم وعفا عن 100من خيارهم بواسطة هواذة .(أيام العرب في الجاهلية12)

- والأمر الآخر ما صنعه هاشم جد النبي ص عندما نظم لقريش الرحلتان إلى الشام شتاء وإلى اليمن والحبشة صيفا، وكان قد أخذ جواز مرور من الإمبراطوريتان بسبب حروبهما معا فأصبح آنذاك يتنقل حتى أصبحت مكة رافدا تجاريا يتوافد عليها الناس ويجدون ما يريدونه ويبتاعون . وكان يقوم بالمقايضة والمضاربة والتبادل. دون أن يتعرض لأي أذى من القبائل ولا يلزمها ضريبة. وبهذا أصبح البيت الحرام ألفة ومكان للتجمع. تاريخ قريش 124-120

ومن بعد هاشم أخذ أخوته بالعهدة يقول اليعقوبي وكان (هاشم) أول من سنّ الرحلتين ..وذلك أن تجارة قريش لا تعدو مكة فكانوا في ضيق... ولما هلك هاشم بن عبد مناف جزعت قريش، و خافت أن تغلبها العرب، فخرج عبد شمس إلى النجاشي ملك الحبشة فجدد بينه و بينه العهد، ثم انصرف، فلم يلبث أن مات بمكة، و دفن بالحجون، و خرج نوفل إلى العراق، و أخذ عهدا من كسرى، ثم أقبل، فمات بموضع يقال له سلمان، و قام بأمر مكة المطلب بن عبد مناف". تاريخ اليعقوبي 1/294-295

- فأصبحت مكة رافدا عظيما للتجارة ويقبل إليها الناس من كل القبائل حتى لقبت بجمهورية تجارية برجوازية.

- هنا العامل الكبير استطاع أبرهة أن ينجح في تحويل الناس إلى اليمن عندما بنى الكنيسة حتى يقول المؤرخون(وأمر الناس فحجوه، فحجه كثير من قبائل العرب سنين، ومكث فيه رجال يتعبدون

ويتألهون ونسكوا له) طبري 1/278 هذا الفعل أخذ كردة فعل من العرب، ويوجد أسباب صنفناها على أنحاء: سبب ساذج حتى يشهون صورة المهانة قالوا: أن رجلا من بني فقيم من كنانة أحدث فيها، وهذا لا يمكن لأنها كنيسة من الصعب اختراقها لوجود حرس ولأنها تضاهي كنائس المشرق بدليل قول الدينوري (رجل من تهامة فعل ذلك، ولما سأل أبرهة قالوا لم يفعل ذلك إلا رجل من غضب للبيت الذي بمكة) الأخبار الطوال ص62 وهناك سببان أقوى منه الأول مرتبط بالتجارة وهناك سبب آخر أن بعض تجار مكة أحرقوا كنيسته غير متعمدين. الأنوار في مولد النبي 1/42 والسبب المهم هو أن بعض العرب قتلوا رسوله الذي بعثه إليهم يدعوهم لحج كنيسته عندما وجه أبرهة مُحَمَّد بن خزاعي راجع مقالتي محمد وأحمد علمين لا صفتان موقع المطيرفي، وأمره على مضر، وأمره أن يسير في الناس يدعوهم إلى حج القليس فقتله رجل من هذيل فاستشاط غضبا وحلف ليهدم الكعبة (الطبري 1/275-276).

- ويصف أبرهة بأنه رجل حليم استطاع أن يخضع العرب الذين في طريقه إلى مكة إلى صفه ولم يصل إلى مكة إلا والأحباش والعرب معه. وأصبح جيشه مقدمه في مكة ومؤخره عند الروم.

- وأول ما فعل هو جلوسه في الحل لا في الحرم، وكان جيشه بقيادة الأسود بن مقصود من بني مذحج قائد الجيش ومبعوث النجاشي بالفيلة (12 فيلا يقدمهم فيل النجاشي واسمه محمود وقيل بـ12فيلا أو8 وقيل بألف فيل روح المعاني30/587) والجيش (فصادر أموال من تهامة من قريش وغيرهم وأصاب 200بعير لعبد المطلب) حاول بعض من قريش وكنانة وهذيل ومن الناس داخل الحرم بالمقاومة فعرفوا أنهم لا طاقة لهم وإن صحت ذلك فأظن أنه بسبب تدخل عبد المطلب أن لا يهتك أحد حرمة الكعبة هو الذي حال وقوع ذلك.

- ثم بعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة برسالة إلى عبد المطلب (إن الملك يقول لك : إني لم آت لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم ، فإن هو لم يرد حربي فأتني به) حتى جاءه ولم يكلمه بشيء بالحرب سوى إرجاع الـ200بعير. وقال قولته المشهورة (أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه) طبري 1/277

- نعم ذكروا أن هناك وساطة بأن يدفعوا لأبرهة ثلث مال تهامة على أن يرجع عن هدم الكعبة فأبى. ولكن هذه كما يقول ابن إسحاق (يزعم بعض أهل العلم ... وا أعلم أكان ذلك أم لا) سيرة ابن هشام 1/67والظاهر أن هذه محاولة لتشويه صورة عبد المطلب لأن الشخصين هما من قبيلة الدئل والآخر من هذيل.

- فأصابهم العذاب وهم يتهيأون فأرسل ا عليهم طيرا من البحر يحمل ثلاثة أحجار. يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس.

فأذن كان الدافع لأبرهة اقتصاديا ولا يمكنه ذلك إلا بإصراف الناس عن البيت الحرام وهدم سياسة ما خططه لهم هاشم بن عبد مناف في سن الرحلتين.

وأما لكونه مسيحيا لماذا أراد أن يهدم الكعبة وهو يعلم أنها من بناء خليل الرحمن ع، فقد اعتذر أبرهة بعض المؤرخين أن قصده هو تطهير الكعبة من الأصنام، لكن فعله سيكون أكثر توسعا، فلعله يريد أن يضع أصناما أخرى من طراز جديد وإدخال الناس في مسيحية وثنية بدليل قول أبرهة (من اجترأ عليّ بهذا ونصاريتي لأهدمن ذلك البيت) مجمع البيان10/435 فهْم عبد المطلب يدعو على أبرهة وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هم إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك لا يغلبن صليبهم * ومحالهم غدوا محالك

أما السؤال لماذا عبد المطلب لم يقاوم؟ في التاريخ القرشي كانت سدانة الكعبة ولواحقها من المناصب الشرفية وليست امتيازات عندهم فكانت سدانة البيت ملقاة على المطلب أولا ثم أعطاه لعبد المطلب، فكانوا ينظرون إلى عبد المطلب باعتباره الأب الروحي هذا أولا، وثانيا كانوا ينظرون إلى أنهم تجارا فاقوا عبد المطلب وبني هاشم ثراء كما يذكر في محله، حتى قال الإمام علي ع عن أبيه أبي طالب(أبي ساد فقيرا وما ساد فقير مثله) اليعقوبي1/335 وثالثا أنهم ينظرون إلى مكة كالخزاعيين

والقضاعيين أنهم يمتلكون بيوتا في مكة لا أرض مكة ولا الأراضي المجاورة (تاريخ قريش142) فيعتبرون أنفسهم بدو رحّل، فكانت عهدة البيت ملقاة على عبد المطلب وحده، ولا يوجد له معين، بدليل عندما حفر بئر زمزم وغيرها من الآبار لم يكن إلا وحده مع أبنائه كالحارث، وفي يوم الفيل (ولم يبق بمكة غير عبد المطلب بن هاشم وأبنائه وشيبة بن عثمان بن عبد الدار) مجمع البيان 10/435فمتى عرفت قيمة البيت والكعبة؟ عندما هزم ا أبرهة الحبشي، وهذا يقوي رأي أن عام الفيل كان قبل مولد النبي ص بـ30أو40سنة فأصبح لقريش شأنا كبيرا ومنهم عبد المطلب الذي أخضع العرب للحج في وقت واحد ووضع مناسك تنظمهم، فلو قاوم عبد المطلب وانتصر أو مات فلن يعرف للبيت شأنا يذكر. بالإضافة إلى أن الإبل التي أخذها أبرهة من عبد المطلب هي ملك للحرم (فلما سمع عبد المطلب بذلك قال الحمد هي مال ا و ضيافة لأهل بيته و نحن ضيفانه و أهل بيته و زواره و حجابه فإن سلمها فهي له و إن ردها فهي من إحسانه و هي عارية و أمانة" الأنوار في مولد النبي 66 وفي تاريخ ابن الأثير (أخذوا مني ثمانين

ناقة و كان قد أعددتها للحجاج لبيت الله الحرام (رواية أنه جعلها 200 بعير هديا للكعبة (ابن الأثير 1/151)

وأخيرا هل يوجد مؤيدات وشواهد من القرآن الكريم؟ الجواب نعم وهي كثر، منها أنك إذا سُئلت من قرينة سورة الفيل أو أختها؟ إنها سورة قريش، ومناسبة السورة أنها "إشارة إلى ما في إيلافهم الرحلتين من منّه الواضح ونعمته الظاهرة عليهم وهو الإطعام والأمن فيعيشون في أرض لا خصب فيها ولا أمن لغيرهم فليعبدوا ربا يدبر أمرهم أحسن التدبير وهو رب البيت". الميزان 20/339

ولهذا اعتبر المسلمون البعض أنهما سورة واحدة ولا يجوز أن تقرأ سورة الفيل في الفريضة منفردة عن سورة قريش. بل وتقرأ مترتبتين معا ولكل واحدة بسملة (المستند في شرح العروة الوثقى 4/332)

فعندنا كما في الشرائع(فلا يجوز إفراد أحدهما عن صاحبتها في كل ركعة)شرائع الإسلام1/83 واعتبرهما السيد الخوئي سورة واحد يفصل بينهما بالبسملة والأحوط وجوبا عند السيستاني. منهاج الصالحين 1/207 -1/173

يقول أبو عبد الله الصادق عليه السلام" لا تجمع بين سورتين في ركعة واحدة (وذكر الفيل وقريش)" ومن العامة من يجعلهما سورة واحدة ويستدلون بفعل أبي بن كعب بأنه لم يفصل بينهما بالبسملة. مجمع البيان10/441

وهذا للتذكير الناس بأن النعمة التي أحرزوها في مكة كانت بسبب انقاذهم من أبرهة وجيشه. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله فضّل (قريشاً) بسبع خصالٍ ـ لم يُعطها أحداً قبلَهم ، ولا يُعطيها أحداً بعدَهم ـ : إن الخلافةَ فيهم ، و [إن] الحِجَابةَ فيهم ، وإن السقَاية فيهم ، وإن النّبُوةَ فيهم ، ونُصِرُوا على الفيل ، وعبدوا الله سبعَ سنين لم يعبدْه أحدٌ غيرهم ، ونزلت فيهم سورةٌ لم يُذْكرْ فيها أحدٌ غيرُهم : (لِإِيلافِ قُرَيْشٍ). أسباب نزول القرآن للواحدي492

والحمد لله رب العالمين